# الجنون في نيتشه
## (رؤية مضاعفة)

خضيّر ميري*

## مقدمة

«ليست الحكمة وحدها هي ما يسري فينا، بل إن جنون هذه العصور فينا بالمثل.. ما أخطر أن تكون وريثاً».
**(فريدريك نيتشه - هكذا تكلم زرادشت)**

عندما طلب جيمس جويس من المحلل النفسي المعروف «كارن جوستاف يونغ» فحص الحالة العقلية لابنته الأولى التي كان سلوكها مشيراً إلى القلق لدى أبيها، قال «يونغ» بعد الفحص: ابنتك تعاني من الخبل المبكر «انفصام»، لأنها تستخدم اللغة بصورة شديدة التشويه والانحراف.. فقال جويس: أنا نفسي استخدمت اللغة بصورة تبدو منحرفة ومشوهة في رواياتي.. فما الفرق؟ فأجاب يونغ: أنت وابنتك مثل شخصين ذهبا إلى قاع النهر، لكن، بينما استطعتَ أن تغوص إلى الأعماق النفسية للحياة وتعود منها، فإن ابنتك غرقت فيها.

وبين أيدينا محاولة جنونية خلاقة لمجنون عراقي مبدع هو «خضيّر ميري»، يحاول فيها هزّ أركان العقل، وإعادة الاعتبار للجنون قبل أن يقع أسيراً للمعرفة، مثلما فعل أستاذه «نيتشه» الذي اعتبر أن الإيمان بالحقيقة هو الجنون بعينه.. وأن هنالك أمراً واحداً سيظل إدراكه مستحيلاً وإلى الأبد: ألا وهو أن تكون عاقلاً.

«الجنون في نيتشه» محاولة خطيرة يحاول من خلالها هذا «الشيطان» إقناعنا بأهمية الجنون من خلال جرعات شعرية باذخة، يمزج فيها سم الباطل في قارورة عسل الحق، ويعلمنا أن الدروس العظيمة تبدأ بنزالات صغيرة وتافهة، والاكتشاف الأبدي أن نحيا.. ونحيا تماماً بكل ما لدينا من خلايا، وبكل ما في جوفنا من خيالات. هذه المحاولة ليست توثيقاً باهراً لمسيرة رجل وضع الفكر داخل الجنون بعد أن وضع «هيغل» الجنون داخل الفكر فحسب، بل هي رؤية مضافة متفردة

تصلح ملحقاً صغيراً لزرادشت نيتشه الذي قال:
«اللغة نوع من الجنون العذب، فعند الحديث بها، يرقص الإنسان فوق جميع الأشياء».
وقد رقص «خضير ميري» من خلال رؤياه المضاعفة هذه، على أوتار الفكر والوجود الإنساني.
في حين أن أستاذه «نيتشه» قد جنّ أخيراً أو «انفجر»، كما يقول «كولن ولسن»، فإن التلميذ خضير ميري قد اقتنع فعلاً من قبل بأهمية الجنون، فأُدخل مستشفى الأمراض العقلية ببغداد مدّة سنتين، أدرك بعدها كما يقول فوكو: «أن إمكانية السؤال عن العقل تتولد من قاع اللاعقل، كما تتوفر من جديد إمكانية إدراك ماهية الوجود من خلال هذيان يجمع في صورة وهم موازٍ للحقيقة بين وجود الواقع ولا وجوده..».
غاص خضيّر ميري في أعماق حلمه.. جنونه النيتشوي.. وعاد محملاً باللآلئ.. عاد برؤيا مضاعفة ختمها بصرخة شامتة.
«أشهد أني قد حاولت..».
قال هاملت: «وإن كان هذا جنوناً، إلا أن بداخله منهجاً».

**(د . حسين حسن)**

*

## البطولة الرائعة .. لا تنحني سريعاً على قارعة الطريق وكل فرح يبتغي الخلود .. وكذلك النسيان

عمّرتني المصحات، وضربتني الكتابة، والفرقُ شاسع بين الناي والمطرقة.

*

لقد أخذتُ عبر الجنونِ في بلدي كلَّ ما ينقصني من الحريةِ، ولن أستجديها من بلدٍ آخر!

*

كان بودنا تصديق السيد (هنري ليشتا بزجر)(1) ولو لحين، وهو يبدي استعداده كأي مقاتل متمترس لمسح غبار السنين عن صورة (فردريك نيتشه)، متشرفاً بروح الشهادة وهو يحاول جاهداً أن يحسن صورة مسيء محترف وخاطئ متمترس، ولكن النيات لا تبدل الغايات، والمبادرات الشريفة غالباً ما تكون باهظة الثمن ومشينة.

1. لكل فكر صحراؤه من الأحلام والآمال الضيقة، ذاك لأن الفكر لا يحسبه على الأمل، كما أنه لا يحسب أي ميت على الحياة التي حتمت الموت فيه.
2. ما من معنى كامل إلا ويُنقّص نفسه لكي يكتمل.. إلا رضاعة الوجود ومزاولة الرعب، فتلك حالات دائماً مكتملة في غموضها.
3. كان عليك يا (نيتشه) أن تمهل الألم لكي يكون معناه، وتمهّل العدم ليرقص معه كل ليلة، فكل هذا حصاد مرّ، أو لعله حريق في مزرعة كلها أشواك وآمال وأحلام صبيانية رغم الرحيق الذي يشي بالملذات، وكان ذلك يعني قنوط الإرادات.. يا للحظ.
هناك صباح يدعى صباحي وظهيرة تعنيه تماماً، وهناك بالطبع مساء دائم، قتل النهار في عينه وصيّره مهرجاً عتيداً يأكل الأمثولة، وتمررُه على مهرج عجوز آخر من أفعاله العظيمة حمل الجثث الطازجة إلى بطون الأشجار، ولأن الضوء لم يحالفه، كان الظلام يُنقّصه ويزيّد وجوده، وما نوافذه إلا جروحٌ مسالمة، وهذا العالم رهانه الخاسر في وحشة عينه. الضوء، ذلك الوغد المهادن الذي فرّ من بين يديه سريعاً. الفناء بالطبع شيء أرعن، ولكن هذا لا يمنع كونه صانع معجزات.

*

1862: الحصول على معضلة، والذهاب نحو الزعزعة، ها هي تتفحص الرسالات بين دفتي كلام ثم تفكر: ماذا يعني كل هذا؟
إنه، أيضاً، له خاتمة. إنه المسيح إنه المسيح.. هذه الشعوب ما زالت أساطير.

*

سأكون نسابياً لترى ما تحت الحجر قبل أن تتكلم .

*

هذا الحجر ثقيل جداً ولا أحتمله، وسريري الصغير من الصمت والتستر، تماماً كما لو أن ملازمة الأعضاء وشد الزوائد اللحمية هي مقدمات للتأمل والتركيز القادم لا محالة

*

أجل.. صف الأشجار طويل تحت ظلال الأشجار، كان العابد الصغير يفحص الجذور من أجل معجزة شاخت فيه مبكراً، وقبل الأوان، أيضاً، رمى بالتفاحة بوجه القمر.. مبتسماً للأقبية!
كل شيء هنا بروتستانتيا لذلك على المكافحة بالسؤال، وتقديم الحصانات كلها بالشك، ذلك الإله الذي لا يجيب عليه إله.

*

أي إله تقصد.. الإله الأدبي أم العلمي؟ أقصد الإله الذي لا يجزأ في الإنسان! كان على أسرتي البولندية أن تحتمل قساوة تهجيرها هناك، طابع فظيع لمن يرحل عن روحه، وكأنه للتو يخلق ذاته في زمان ومكان هاربين من مداه، آه، كذلك معاقرة الغربة إدمان مصغر على إفناء الذات بآخر هو دائماً آخر.. أليس كذلك؟ نعم، سيكون ميالاً إلى العبادات لعلها وسيلة مريحة لطرد الشرور عن الخواطر، وتقليل شأن الإنسان قبل موته، فلعل قهر الذات مثال مناسب للتوجع والنسيان.

*

أين ذهب القس الصغير؟ إلى النزهة قهقهة، داخل رأسه أم خارجه؟ لا خارج لديه على الإطلاق.

*

ستكون هذه الآفاق رعافه الحاد، المدينة التي جعلت عينيه تصدأ، الصلوات، مجالس النساء، العوز إلى العفة، والإكثار من الهدوء.

*

ما معنى هذا الضعف..؟ إنه قوة أخرى لتحمل الألم، سنبدأ، إذاً، من هنا!

*

الأمطار تعشق النافذة، لذا، سأصغي بكامل كياني إلى وحشة الطريق، وهو يهاجم سكون بقائي وراحتي في أكفان الليل والصمت أكثر، لكي لا تعضه المتاهة، نصب لنفسه رموزاً عارية عن التصديق، وكانت

الأفعى تسلخ جلدها، والنسر يحلق عالياً، وهو يسقط ريشة تحته ليعود مرة أخرى، بهي جداً وناصع في ألوانه تحت المطر وقبال الشمس، شيءٌ لا يصدق.
كان أبوه أورثه مهنة مخاطبة النفوس، كانت الوراثة تسري في دمه، فلم يدمن أباه طويلاً، كان ذلك في (روكن) عندما وجد نفسه بلا أب.. وسيكون الفقدان وحده هو الدرس الأول للضياع المقفر بعد خمس سنوات من تدوين اسمه في سجل الأحياء.

*

إنّ الدروسَ العظيمة تبدأ بنزالات صغيرة وتافهة، والاكتشاف الأبدي أن نحيا، ونحيا تماماً بكل ما لدينا من خلايا، وبكل ما في جوفنا من خيالات.

*

إذاً.. ماذا يفعل القس الذي لم يعد صغيراً في جامعة (بال)؟ لا شيء على الإطلاق، إنه فتى يلتهم اليونانية ثم يُدرِّسها لآخرين، هادئ جداً وهوَ يتعلم، صاخبٌ جداً وخطيرٌ عندما يفصح عما يريد!

*

ما من إرادة تكفيه بلا ألم، إنه مثلاً يتجول وحيداً في مدينة (بال)، هذه الجبال هناك سلسلة من الصخور الثابتة في وجدانه الهزيل، تلك السواقي هي ممرات غياب.. الأعالي ستبقى مظلمة إذا كانت الرؤية لا ترى غيرها.. على القدم أن ترى طريقها أمامها، وما على عيوننا إلا مسيرة الأعماق.

*

هل زعزع بذلك ضميره؟ كلا، لقد أجفل قطيع خرافه لا أكثر .

*

وكان على الخراف أن تصعد جميعها إلى (الحرب السبعينية)، هو، أيضاً، يرغب بالمنازلة، ويعصر رئتيه لكي تحتمل أبخرة الحياة الآسنة، اختبار الإرادة، وتحرير قوة الإرادة في محنتها، سوف تتراجع صحته

ويهجر الحرب متفرغاً إلى ولادة المأساة، سوف يعرف ما أراد له ذلك، المزيد من رحلة الألم في الوريد!

*

أكداس، أكداس من الأفكار التي لا تكف عن الهذيان، كان ذلك العام 1878، وهو لا يزال «جامعياً»، سوف يكتب «أشياء إنسانية وإنسانية جداً»، «آراء مختلفة»، و(المسافر وظله)، سيكون هذا الإنساني المبتدع طريدته التي لا بد من الجريان خلفها ببساطة لا تخلو من بلاهة سيدين، هذا الوجود العاقل، وسيعرف به كونه صامتاً ولا يُنطقه عقل.

*

لم يكن هذا العالم إنسانياً تماماً إلا بفعل جرثومة الأوهام الشرعية، واللعب على الطاقات!

*

لن أدع الحياة تخدعني، فليس لديها ما لدي من أسلحة فتاكة.. مثلاً هذا المرض الذي أسكن فيه ويسكنني هو أعظم سلاح ضد التواطؤ مع الحياة.

*

بعد قليل سيرتدي قفازيه، ويشمِّر عن ساعديه من أجل البحث عن مهزلة مناسبة!

*

على خارطتي أضع «شوبنهور» في مقدمة الأسى، بعده بقليل «فاجنر»، ثم ما شاء لك من الأحلام التي تتعس وجودنا أملاً بالفناء المسالم، وهذا مستحيل!

*

أسيكون بمقدوره أن يشق غبار الطرق.. سيكون مأسوفاً عليه، وهو يولد المأساة من روح الموسيقى، المأساة، دائماً، أليس هذا قدراً غريباً.

لقد تعودت عيناه على النظر بين أصابع يديه، وتحت أنف ريشته القلقة.. دخل مساحة للمواجهة.. عصية جداً هي روحه «اليونانية»، كان يفتش في قلعة الرمل عن «شوبنهور»، وهو يجالس كلبه العجوز ويشتم «جيته» بإصرار، الآن القس «نيتشه» يهاجم «دافيد شتراوس» وهو يستهدف الأخلاق الواقية بلا تردد.
لقد بدأ يجفف من أمطار الميتافيزيقيا! الشخصيات لا تسطو على كيانه، وكذلك الصخور والأشجار.

*

مثال ذلك في العام 1876 شحوب هائلة أصابت علاقته الداخلية بـِ «فاجنر» تـ باعد، ضغينة مرضية، واعتلال مريع في صلاحية الجسد، وخيانة المثال الأعلى للقديس المتحمس الذي بشّر به.

*

لم تعد هناك أرض تحت قدمه.. ولا سماء كذلك، إنها أوهام رائعة، وأفكار لا تحميها الأنوات، ولا يعتبر بها الآخرون، سوف يتعلم التدريب الحرّ على الاختناق.

*

اختناق قليل في هضاب سويسرا، مطاردة محمومة لأثر الضوء في السعادة، الأرض في تضاريسها، وتلك الفورات الساخنة التي تفيء ظله على الأرض مريضاً وغير محسوس، بعد أنه يهذي وهو يمشي، الفراغ يحتمل المزيد من الأفكار.. وسيكون مزاجه رائقاً بعض الشيء وهو يعود إلى عتاده من الأوراق والخطابات، عليه أن ينسى طَلَقهُ، تماماً، إذاً ماتت الحقيقة بين يديه.

*

موسيقى الإرادة.. موسيقى ضجيج وغضب، الإرادة ذاتها هي التي زرعت في أعماقه «الحلم اليوناني».

*

ثم إنها وسعت له طريق الجمال وجعلته في عرس دائم مع أبولون.. هذا العالم سيزرع الإرادة الراقية على الوجود كلّه، ثم إن الجمال هو الخَلَق المُتَوتِّر.
سوف يقرفص ساقيه في هذه الناحية الخصبة من العطاء اليوناني.

ماذا؟ هل كان ذلك ما يرغب به «شوبنهور»؟ إلاّ إن إرادته عمياء، إنها تماماً، مثل جرح نازف، إنه عندما يجلس ليفكر، يفكر طويلاً دون أن يجعل الحياة تقوم فيه.. إلاّ أني أجد أن الفكر دائماً يعيش واقفاً، ليكون أطول من ظله، وكذلك أكبر من نفسه إذا تاقت إلى ذلك؟

*

سوف يجني من الإرادة في وريدها اليوناني ذلك الطيف المتحرك الذي يجعل العالم زاخراً بالآلهة وأشباهها.. حتى يصبح الهذيان بريقاً، والإرادة موسيقى ساحرة، حيث يمكن الوصول من خلالها إلى السُكر الصوفي، نشوة الذات، وهي تولد نفسها بلا حدود ولا مواضعات.. الذات التي تنتج آلهتها بلذة وطمأنينة.

سكنت حياته بعد «فاجنر»، وكانت لديه كل الأوقات المحببة لنفسه في الأفول والتلاشي، بمحاذاته طاولة الكتابة، قطّارة عينيه، ومهدئات آفاته الجسدية، وعناصر التكيف الأخرى، الأحلام والنافذة وجبل زرادشت.. كل هذه الإهدارات قسطت حياته عليه، وجعلته مشدوداً إلى آمال «فاجنر» وهو ينظر إليه كعاشق إلهي، جنون الموسيقى، ذلك الذي حل في روحه مبكراً، إنه، أيضاً، كان ينوي أن يقف على منصة العالم موسيقياً، ثم يخترق الجدران بانسيابية.

*

إلا أنه قد عثر على معوله.. وأخذت الصخور كلّها تسعى إليه.

*

ليست الصخور فحسب، بل كل الحصانات الأخرى التي ساعدت الكائن الواهم على إغلاقِ نوافذهِ فيه، إلا أن الاصفرارَ اعتلى مرآة وجهه.. لقد خرج العشق من منخريهِ، وأصيب بدوارٍ حادٍّ، ثم أخذ يعظ نفسه قائلاً (إن ما يشغلني الآن هو الشفاء، لم يكن فاجنر إلا علّة من عللي).

وأكثر من ذلك، هو الرعب الذي حوّل الجمل إلى أرنب، والأرنب إلى نملة عاقلة تعتقد أن صغر حجمها لن يجعل العدم ينظر إليها.

إلا أن العدم لا وزن له ولا حجم فيه يذكر، وكذلك الزمان، إنه لا شيء، تماماً، سوى أنه يذهب بعيداً دون تحفظ.. الزمان لا ذاكرة له، وكذلك الوجود والعالم، وتلك التلافيف التي في الذاكرة.

لا أدري لماذا فكر «نيتشه» في ذلك، لعله كان يظن وهو يسحب نفساً من غليونه المصنوع من خشب الصنوبر وهو يُذوب «مخدره» في فنجان القهوة وهو يتنزه مصغياً إلى أصوات الطيور وأنفاس الأشجار

وتضجر الخطوات المتكاسلة فوق الصخور، لعله كان يظن أن العالم ما هو إلا كرة تتدحرج أمام قدميه، إنها مزاولة حمقاء للعبة القوى الثابتة في وزنها القوى القبيحة ذات الحجم الرصين، إنها مجرد كثافة دورات، ثم دورات في دورات، ثم تلك العودات الدائمة، العودات الأبدية.. العودات التي حطت في جسده، هو «فردريك نيتشه»، مرة ثم أخرى مثل نوبات الاختناق، مثل ساعات الاحتضار، مثل متوالية النوم واليقظة، والذهاب والإياب، مثل سكرات الموت، أو لعلها مثل نوبات مرضه ومواعيد آلامه وفصول أوجاعه التي فاقت حدها، فأخذت ترى الحياة بكاملها، ما هي إلا عادات ودورات وألعاب قوى كونية شاملة ومكررة بإسراف الصمت الذي راعه الاستماع إليه.. الوجود الذي رافقه مبكراً، وجعل كل ما فيه مباحاً للذهاب، هذا هو ما تخبرنا به الإرادة المتوترة.

*

سوف يكون لي مرة أخرى هذا الجبل، وذلك الصولجان، ولا بأس بقليل من القبح لضحاياي.

*

إنه يوزع العمى على العقول المائعة، أملاً بصعود الإنسان على جثته، ورغم أن السعادة سقطت من حساباته مبكراً، فإن ألمه الخاص جعل حياته راقصة من فرط التوجع.

*

لو أندرياس سالومي موسيقى عنيفة تقتلع الموقد من رقاده، هو يأكل ثديها رغم السخام، هذه العاصفة التي دقت رأسه قبل الأوان وجعلت منه فيلسوفاً بلا ظل.
أحياناً، يعلق الهدف العظيم ببعوضة، إلا أن العواصف كلها لا تقدر أن تزيل بعوضة تفكر بنفسها، فما بال نيتشه خائفاً وهو الذي يصرخ في البرية قائلاً: (الفوارق الأبدية بين الإنسان والإنسان تدفعني إلى الوحدة)، ثم إنه لم يكن قادراً على تقبل معنى الحياة، ولا طعمها الباهت الرتيب، وغير راضٍ على هيولتها اللزجة، هذا الطين كلّه البارد والمتأفف الرائب قليلاً، والمصلوب على هياكلنا العظيمة، لا يساوي لحظة فراغ واحدة في متسع العدم.

*

سيكون ممكناً اختراع معجزة لا تصدق في حياة هذا عمقها، وأعني قشرتها الآدمية المختادة كثيراً يا للأسف، اختراع الآلام التي صارت سعادات صغيرة، انقطاع مبكر ومبكر جداً يفصل هنا في محطة

الضوء والعتمة في سعير المناجاة والغربة الدامية، حيث يوزع (ديونيسيس) بقايا ألوهيته ويطفئ النهار صباحاً من العام (1865).
أخذت الطيور كلها تزعق في رأس نيتشه وكذلك الحشرات وفراشات الضوء والوحوش والنوايا، كان ذلك غير ممكن التصديق في جامعة بون.

*

ديفيد شتراوس وعطالات مشابهة، كلا، ليست الأخلاق ممكنة مع كل الكمية من الضعف لدى الرعاع العاملين.

*

سوف يكون مذهولاً تماماً، وهو يعبر الطريق الزاحف من الأنا إلى الأنا، لولا أنه آثر الانحراف كلياً عن جادة الصواب.
مع أن صلابة الحديد شيء مناسب لوصف تجليات القوة في مسارها المرعب، إلاّ أن القلب الرقيق في (تربشن: أعالي سويسرا حيث منزل فاجنر) كانت كافية لأن تجعل من هذه الصلابة ضعفاً وتعلقاً مرضياً، وكثيراً من الانبهار طبعاً.

*

ترى ما التوحد؟ إنه السؤال الذي أتشمم رائحته مع هطول المطر، حيث تبعث الأرض رائحة التراب، وتطلق الأشجار صرير حي، ثم سرعان ما يهرب الجميع من الجميع هناك لحظات تخلو بها الأرض من جيوش الآدميين، ثم سرعان ما تحل السكينة في الأعصاب وتخلو المشاهد من النظرات الفضولية ساعات لا مثيل لها إلا في حداد جماعي، ساعات يخيل للمرء فيها بأن وجود كل هذا التكثر في العالم محض خطأ لا أكثر. لقد وجد الإنسان وحيداً وهو يقضي حياته برمتها لكي يستعيد الوحدة التي ضاعت منه رغم أنفه.
هكذا فكر نيتشه بمُستقبله لحظات سقوط المطر.

*

الوحدة والمرض هما ثروته الوحيدة في القافلة.

ماذا؟ إن المرض وحده هو الذي يجعل الفكر يعمل، ما من إبداع إلا ويكون سليل خلل رهيب لن يكون له شيءٌ.. سوى ذلك الاتساع اللامحدود الذي قاده نحو الهاوية.
العلّة التي جعلته يهوم عالياً وهو شتات ضميره، هذا الدرب سيكون شائكاً ومثيراً، ما من مخلص آخر يساعده على نسيان انشداده الغريب نحو مثال الكائنات، ما من شمس أخرى ستعينه على التخلص من عصاه، إن الخفافيش كلها كانت تعود إلى ظلام رأسه.. ثم سرعان ما يحلق الفكر معها بالرغم من هذه الكهوف كلها التي عصرت أيامه أمام عينيه.

*

ليس هكذا يا فاجنر.. البطولة الرائعة لا تنحني سريعاً على قارعة الطريق؟

*

إنني حرّ الآن، إذ لا فاجنر هناك! إنني حرّ تماماً، وأنا أرى نيتشه بلا وجه، وكذلك بلا قناع، وهو يهذي بكبرياء زوبعة.

*

سوف يذهب إلى المرعى، أخيراً، ليرى قطيعه وهو نائم، ثم يعود سريعاً بعد أن أصبح القطيع هائجاً.

*

هو ذاته الآن يفضل الجنون على صلاحية التاريخ.. لماذا؟ ألكي يكون الجمال كلّه مضغة من التبغ الحامض الرخيص؟ كان عليه أن يميز خطوته المرتجفة، المرتدة إلى أعصابها، ثم هناك صخور كثيرة تعيق أنفاسه وتسقطه أرضاً آلاف المرات، وتحولت الرؤية لديه من الخارج إلى الداخل، ثم إلى أعماق الداخل، مطارداً فسحة الضوء الذي يحترق في جوفه وهو لا يزال فتياً ولا ترتقي قامته للنظر من النافذة.
هناك اتساع في الرؤية رغم انحسار البصر، بل إن شبه النظر.. قد عود روحه على السكينة المرة مطارداً ملمح البصر الذي يتحرك فيه لا حوله، ويجالس أعماقه حدّ المرض والقشعريرة. بخيل جداً عليه هذا العالم، في سن الخامسة والعشرين لا يزال مبكراً وسعيداً، وهو يمتطي حصانه محارباً في العام (1867)، مارقاً بآماله، أحلام راجفة، ومنحسراً عن الرؤية. سوف أسميه.. جنوناً عندما يكون الضعف قوة والإرادة صرخة في متاهة.

متسلحاً وعنيفاً وهو يؤدي دواره القارس، كما لو أنه مهووس لا مثيل له في اصطياد الأزمان التي لم يشق لها غبار، هذه الدابة التي أرخت ظلها عليه، ثم ماذا سيبقى من تربية الضوء، كيف يمكن له التحليق عالياً وعكازتاه ترعى على الأرض؟ الجمال النيء هذيان البؤس، وانشطار الذات الفائضة عن لسانها النوافذ التي أغلقها الغبار، والنوبات الحادة. هذا العرس الأبله الذي جعل الأصنام تضحك، ثم تقدم لها النذور والرؤوس.

قدره الذي حوله إلى «ممرض» ومتسول شفاءات، ثم يهيب به المرض كي يتوب عن جنونه قليلاً بلا اعتذارات تذكر، ما من أحد رآه مبتسماً إلا لأنه كان ينوي أن يعض لسانه.

*

هنا غليونه الساخن وقفازات يديه هناك، بعض أوراق مدعوكة وطاولة من الخشب، بقايا لشمعة مجهدة متلاشية حتى نصفها، كانت تسفح حياتها قرب إبريق الشاي.

إنها على ثقة كافية بأنها ستحرق رأسها ثانية من أجل عينيه.

*

تفوح من فمه رائحة الجنائز، إنه يبصق دماً، ويبشر بعصر كلّه اعوجاج. هكذا تكلم عنه أعداؤه وهو يجلس مباركاً رسالته المستحيلة في تحويل الإنسان إلى إنسان، ما معنى أنه لا يزال وحيداً يطرد الأحلام من منخريه، سوف يأتي.. سوف يأتي، قريباً وقريباً جداً، حيث سيحط ساقيه على كتفيّ، ويبتسم في المرآة وهو يتابع طيرانه فوق الحشرات، إلا أنني سمعتهم يقولون: لقد اعتذر عن المجيء بعد أن نفدت طاقته على الطيران، هناك ضحك لا علاقة له بالمهزلة، إنه غالباً ما يكون عزاء صاخباً.

ما من شك أنه سيوجه نظره إلى الأعالي، حيث ما زالت الوليمة قائمة.. هذا الافتراس الممل لكل الفضائل الطائلة التي قدمت حياتي من أجل فضلاتها.. أين هي تلك القيم التي حولت الحياة إلى دودة، وحولتنا إلى ضفادع كسولة، من يا ترى يقنع الدودة بحكمة الضفادع؟!

*

بدأت النوبات تقل وأسنانه تصطك، عدد قليل من المرات وعقله يهتز بانسيابية مثل ساعة جدارية، ثم يتوقف الرقاص في منتصف الليل متسائلاً: (ماذا يقول منتصف الليل العميق؟).

هذه العجالة التي كتفت تراجعاته وعملت منه.. وصولاً إلى القسوة والبطش، إنما الضعف هو الفناء، لن نكمله بعد عن الحرية، فهو لا يصدق حرية تجيد حياتها، فقط بالكلام.

*

ولن نجرؤ  على أن نوهمه بالسعادة، وأقدامه ما زالت مجهدة، ولا حتى بالصلاة.. فهذه مطاردة يائسة لحقيقة دائماً متعالية.
ثم إنه غادر المنصة مبكراً ليفسح المجال لنا في الحضور والمشي والإبادة البطيئة. فتح كوة الضوء وأنار عتمة الآخرين، إلا أن شمعته وحدها لفظت أنفاسها، لن ينام أخيراً تماماً كما كان مبكراً، لا يصدق أنه لن ينام.

*

لم تفرغ بعد حياته من التيه والعماء، فلم يُشف حقاً، وهو يصاحب زرادشت، ويذهب معه إلى قمة الجبل ليوزع الخطايا على الضحايا، ويعلن موت آلهته، ولم يكن هناك أمل حقيقي في صعود الإنسان على كتفه مولداً تفوقاً وهمياً، مثله كمثل تلة من رمال سرعان ما يلحسها الموج، ويناثر كيانها الهش الرضيع، إنه يغادر مسرعاً تاركاً منصة العالم إلى الغيوم السوداء، بعد أن خرج من البوابة الخلفية خاسراً عوالمه كلها، ومشيعاً الجنازات هناك، عند لقاء الضوء والقلعة في فسحة من الأثيل الأصفر يزرع بقايا نفسه ليفكر بدورة الأبدية وسخف كمية الحياة المبثوثة في الكائنات، كمية من الدورات الهرمة تعيد الحياة نفسها والأشخاص والأشياء والمعالم والحروب لا لشيء، إلا لأنه أصبح ناضجاً للرعب والرهبة في فراغ نفسه وعواء طموحه فيه، كان ذلك في تقويم 1881.

*

لم يكن ذلك يرضيه بعد أن فكر بما فكر، وأجهد خلاياه أنه سيعود أخيراً معتنقاً سوداوية فيزيائية أشبه بكابوس دائري يضيق على الرأس كلما حاول المرء التخلص منه، ثم سرعان ما يعطس العالم فيزرع الأهوال في النفوس، وينقلب الزمان حلقة مفرغة، والأرض بالوناً يابساً والسماء سحابة من دخان. أعتقد أنه حلم بالمستحيل كثيراً.. وهذا يعني أنه خط بعناية، وبالتالي، فإن حكمته المرحة انقلبت دموعاً، ولم يكترث لهذا وهو يمسك شاربيه. ما إن صرخ: «وجدتها»، حتى أخذت أبواب السماوات تفتح له ليرى من أعماق الأرض مؤخرة السماء، هو الأعمى الذي لا يكاد يشاهد أرنبة أنفه، ولا شعرات شاربه الكث

«المشبوك»، سرعان ما أخذ يحلق عالياً مفارقاً الحثالات، غير عابئ بالصغائر والتفاصيل ليرى العالم من خارجه بل من أطراف خارجه، فيشاهد فيه كرات في كرات، دوائر في دوائر، ثم أخذ يمسك بعصاه صارخاً على الموت : هناك الحياة؟ ألا لتأت مرة أخرى، سوف تعود له الحياة مرة أخرى، ذليلة وطيعة بكامل ما فيها من شرور، وهي تشمر له عن ساعديها .. ثم تجالسه بشوق وهي تسقيه العذابات، وتشاطره المتعة المزدوجة، المتعة التي أحرقت عينيه وعطلت غرائزه، إنه لا يكل من العودة إلى نفسه، إلى كهف ظلماته وضياعه وتساؤلاته الشاذة، والتي لا حدود لها، لا بأس، سوف أتحمل قسطاً آخر من اللهيب، وسوف أسمح لذاتي بأن تسحق، ولآمالي بأن تطرد خارجاً، وسوف أسير وحيداً وغريباً حاملاً ظلي وعقلي ومصير قدمي.. نحو عودة أخرى، نحو حياة مضافة وجنون مضاعف.

نعم، سوف أصغي بعمق إلى صوت منتصف الليل العميق، إلى صمته الذي يتكلم بصوت واضح وصريح في تلك الساعة التي يشطر فيها العالم شطرين، شطراً يختبئ فيه الضوء في الظلام، وشطراً آخر يختبئ فيه الظلام في ضوء التساؤل الحي الخلاق! حيث يجلس «نيتشه» وحيداً في ليل العالم باحثاً عن «الضوء العميق»، الضوء الذي لا يحتمله الضوء المألوف، ضوء أبعد من بياض النهار، وكأنه قوة خفية تحول الإنسان إلى حشرة ضوئية كل ما فيها (إشعاع) غامر وتساؤلٌ وفيضٌ ما بعده فيض، وتأخذه التساؤلات بعيداً ليولد منه الفرح الذي لم يذق له طعماً، وهو يصافح الحياة والناس والسعادات المبذولة لغيره من الحشرات، ويزول الضوء من رأسه وهو لا يزال واقفاً عليه ويصرخ به «الناقوس» في ناموسه الأبدي ويطلق دقته الأولى.

**(1: ألا احترس أيها الإنسان!)**

فالحقيقة أصبحت شفافة، مثل غشاوة طفل واهمة جداً، مثل حبات السكر، ومُرّة جداً مثل مخاط لزج، احترس من فحيحها الشائق، من «ألوانها»، و«غنائها» الرخيم.. كان عليه أن يحترس، تماماً، قبل أن يخض حجراته في ساعة الألق الغريب، حيث يسحب الليل غطاءه، ويطرد النوم عيونه، سيكون هو الليل مبهراً، والنهار حاسر العينين يبحث عن طريقه بين عامة الناس.

وما إن أخذ يحلق عالياً فوق «الأجراس» وقمم «الكنائس» النائمة بعيداً حتى عن هواء منخريه، حتى هزت أعماقه.

## الدقة الثانية

**(2: ماذا يقول منتصف الليل العميق؟)**

إنه يتكلم ذلك العمق، لكي لا يقول شيئاً، وربما هذا يعني أن يعود السؤال إلى الصمت، تتوحد همة الإنسان مع عدمه المهين، حيث كنت قبل هذا مكوراً فيّ، ومسجوناً في داخل محكم لا انبعاجات فيه، ولا

نوافذ ولا كلمات، حينما كنت في رحم الزمان صدفة عابثة، وفكرة مقذوفة في الهواء، حين كنت حلماً يحلم بآخر.

(3: **كنت أنام – كنت أنام**)

لا شيء في الحاضر يمت بصلة للنيام، لقد نمت مرة واحدة في حياتي عندما كنت هناك في بئر الشهوات مدهوناً بدماء الآخرين، ولكن ما إن حولني الزمان إلى هنا، حتى طرد النوم من حياتي لأرسل بصري نحو الموت.

(4: **ها أنذا قد تيقظت من حلم عميق**)

لا يوجد حاجز أمين بين الحلم والصحوة، سوف أقسم ذاتي إلى قسمين، هناك كمية فيّ ما زالت حلماً، وأخرى ما زالت تقرأ الحلم وتفسر فيه.

(5: **الوجود هو عميق**)

لقد أُتيحت لي فرصة امتحانه عندما أخذت أُطارده، وهو لا يزال يفر من داخل إلى داخل، ومن خارج إلى خارج، ومن عمق إلى عمق، سوف أتسلح لقوة السؤال وحده، وأدخل خلفه عارياً حتى لو أرجعتم التراب خلفي، فإن هذا سيجعلني أكون مطمئناً، إنه لن يهرب من حيث دخلت!

(6: **أعمق مما يفكر فيه النهار**)

سوف يكون ذلك العمق كلّه دونما حاجة إلى ضجيج، وسوف أجد فيه راحة الألم وقساوة السعادة المناسبة للهذيان.

(7: **وعميق شفاؤه**)

أيعقل أن يكون هذا الاحتراق كلّه مزاحاً؟

(8: **وفرحه أعمق من ألمه**)

تماماً كما لو كنت أفرح لمجرد كوني ما زلت جاهلاً، وأنا أقود ساقي وفي يدي سوط من الحرية أحث فيه عقلي ليحلم بقوة ألف حصان!

(9: **الشقاء يقول لك: أهلك**)

إنها حقيقة الرحلة ومعنى التوصل إليك.

**(10: ولكن كل فرح يبتغي الخلود)**
وكذلك هو النسيان.

**(11: ينبغي الخلود، الخلود العميق)**
حيث يكون الليل كلّه ليلاً، وينسى الزمان أن يعود مرة أخرى.

*

وتأخذه حرقة في روحه، ذلك لأنه بريء جداً، ومزاول خسارات، إلا أن الوجود مهما تفاءل أكثر، اقترب من فجوة نفسه، ومهما كبر أكثر، أصبح ناضجاً أكثر للسقطة! لماذا كان علي أن أشاهد الحياة وهي تبتسم، من تجرؤ على إعطاء الحياة فماً وهي غالباً ما تصغي إليّ وحدي وأنا الناطق الوحيد باسمها.

*

لست وحدي من يتكلم، ولذا يتعذر الإصغاء إليّ، حتى إذا ما كنت صامتاً.

*

تقول الريح إنه الآن يضحك ويبتسم، ثم يهرب من نفسه بين لعبة القوى وضعف الإرادات، بين غضب النفس ولا اكتراث العاصفة، من أين يبدأ الزمان، من أية فاصلة أو هنِة، من أية نأمة أو فجوة، ثم كيف سيتسنى لنا أن نرقص دون أن نذوب في الهواء وهو يدور مثل دمية طائشة، مثل أي هراء آخر.
لو سالومي.. ذلك الشبح الذي سرعان ما توارى، ماذا؟ هل نسي «نيتشه» أن يتفقد السوط؟ ثم إنه فرقع خلاياه ولسع مناطق جلده، وكان عليه أن يجلد الحقيقة ألف جلدة لتقيء كل أوهامها في وعاء عتيق.
الحقيقة التي خانتها الأسباب والمسببات، وأصبحت تشحذ ظلها، وتعرض هزالها على الملأ.

*

سوف أبعث بهذا الأمر إلى ذويه، وسأقول إن ذلك محالٌ، فما من حياة قانعة ومسالمة جديرة بالحب، سوف أمزق الفراشات، وأجعل منها شارات معدنية للفروسية المشوهة.. إذا ما أردت لك موضعاً رفيعاً «عش في خطر»، سأكون صامتاً لكي أكون إلهاً يفكر.

ذلك الخطر الذي دقّ الناقوس، وأنا ألتهم شفاهم، هذه الحفرة مثقال لا بد منه لقياس كمية اللحم في الطين! وإذا ما تذوقت الطين وتحسست عيوني ظلام التراب ورطوبته الخشنة، وإذا ما جاءت نوبات الحقيقة سأقول إني عشت أكثر من واقع موتي الذي حملته كل الأخطار وأنا أهرب.

*

ما معنى إلاّ يعذبني تماماً، وأنا ما زلت غاصاً بالسؤال، ما من إجابة تساوي عناء سؤالها، ولذا أخذت أحطم الأصنام ورأسي واقف بينها.

**(وداعاً سالومي)**

ورفع عينيه إلى الصحيفة الصفراء التي أكل عليها الجدار وشرب، وتثاءبت في وجهه لتعلن قرب مغيب زرادشت، كان ذلك العام 1887، حيث الضحك كان على أشده، وكذلك الألم الساخن والعاصفة.

إنهم يحملون لي الغبطة، ولم أعد أشعر بالاحتراق حتى في أعشاب غليوني، وسوف أفتح بوابتي للجليد، هذه الوساوس لن أدعها تهجع هنا قليلاً «غنني أغنية جديدة».. أية أغنية خرساء، أية رقصة تمسح العرق عن جبين الأرض وتدلق الكؤوس في جروح الضحايا «غنني أغنية جديدة».. سوف أحلق في سماء العالم لأشاهد أعمارنا وهي تُصلي للفراغ، عابقاً برائحة الدود، وآملاً بالجنون الذي يزين لي هذه الحيوات. ما لي لم أعد أرى دمائي وهي تفور هنا، سأصل إلى نهاية الوريد، أفسحوا لي الطريق، إنني أغني هنا على هذه الرقعة الزاخرة بالآخرين بين صفوف الحشرات والأرصفة والأشجار، حيث الإرادات الناقصة تبيض هلعاً، وتؤثث الأعشاش بالمنايا. هنا في مدينة (تورين) سأغلق الباب على يناير 1899 وأقوده سجيناً لأغنيتي، سوف أسقيه شيئاً من القهوة المرة، وأعابث أصابع البيانو.. وأُغنّيه شهيداً، لا أحد بقربي سوى «يناير»، وذكريات الفضة في لو سالومي، لا أحد سيجفف أعضائي معي ولا يوجد من يقمط أحلامي، ذات صياح «غنني أغنية جديدة»..

أيها القلب الذي حافظت عليه حتى من إنسانيتي، ورفعت الحواجز عن طريقه من أجل الضوء والهواء، سوف أراه الآن بعد تكشف العالم كلّه فيّ (وهرب مني جلدي بعيداً – بعيداً) أغنية جديدة واحدة لا يقاطع روحها الألم ولا تقليها النوبات.

لن أكذب عليك.. فما زلت مسيئاً وصحتي غير كافية لتدهور أعذاري، الحياة نفسها هي السبب في تأجيل الموت عن عطاياه، الذنوب.. الذنوب التي طردت لو سالومي بعيداً.. ثم إن الذنوب نفسها هي التي جعلت «فاجنر» ينتحر في حياتي، كلا، هذه ليست أغنيتي، سوف أرقص كأي نبي وهو يُحرّق نيئاً، وكأي مرابٍ عجوز يضاعف الديون على كارهيه، هذه أغنيتي ومكمن السعادات في أشلائي، ها أنذا أنضج تماماً، إنني أعرف هذا النجم اللاهب الذي حلَّقَ قبالتي، وأنسابُ خلف عيني، أنت وحدك حافظ أغنيتي، حريصاً

جداً على زوال كل شيء معي، ثم تنادي ضالتي ما لكم فيها من زعاف، ثم سأرهص لك بالمصائب الشائبة، ولا بأس من قنوطي بين ذراعيك، إنه يعرف حيزي وإكليلي من الطين، يعرف أغنيتي للفانين، من منا لم يسمعني أغني ولم يوسع رقعة الذهاب نحوه حاملاً سوطه على رقبته، وكأنها أفعى كسولة، حاملاً سلال النجوم إلى مائدة بهية في دثارها الأسود الكثيف، ثم يتكئ على الشمس نهاراً ويقلي السمك والأسئلة في الرؤوس، وبعدها بقليل يقضم تفاحتي عجولاً مثل كلب مبتل أشبعوه كراهية، إلا أني كنت جائعاً ولا أصلي.

*

سأكف عن النشيد.. الوداع بطبعه من صم وبكم، سأعانق هذا الحصان الذي مسخته محبة البشر، سألاشيك تماماً وأدق المسامير في لوحك الأخير، هذه الحروف التي خانت ولادتها، الطيور التي راحت غير مبالية الأنفاس، التي ناخت انتظاراً، سأخلفك عدواً.. أيها الكيان اليتيم لا أسئلة تعود إليك ولا حتى مقدار أظفر في جثمان الطمأنينة، القلاع تهدم في الوجوه العابسة، إلا أني ما زلت قانعاً بهذا المروق، بهذا الجمال العصي على المسالمة قانعاً ومريداً. سألحس قفا النهاية، هناك ينابيع منها، وأطياف وشعوب، ما معنى أن أجانب الصواب فيها، أهكذا هو «يناير» وهو يُفقّس البيض في حنجرتي.
مثلاً أنت يا (أفربك)(2)، أما زالت الرجولة تفوح من شاربيك؟ لماذا أجدني أكثر زهواً في أعراس النساء، أقل فحولة في جيوش من الأوهام؟ راعني، إني ما زلت حياً في النهاية، هذا هو صبرك كلّه عليَّ، صبرك وذراعك من الحنطة، هذا هو نايك الأبدي يجدّف في تيار الأسطورة، سأصرخ بك: كف عن التورط بالخجل، كفاك زهواً بالعصافير وهي راقصة، كفاك إذلالاً لنواياي، إنني ما زلت لاهثاً من حمل الأورام وهي لا تشيخ، ثم هل كذبت عليك وأنا أغني عامي الأخير الذي فلقت الحبة فيه، وأوهنني صدئي ثم أفقت على المرح وهو يداعب الجمرة في حنجرتي، وتلك أغنية مباركة للانهاية، مادّاً الضريح على شفاه الوردة، وهارباً بالأعداء نحو معركتي الخاسرة، حسناً، ها أنذا ماداً لساني على مجرى الدماء أعزف عن رائحة البشر.

*

كان عليّ ألا ألوّح وأنا أرحل، فأدل الوجود على أثري، كان علي أن أنقرض مثل أسطورة بلا زمن، مثل أغنية راعٍ وهو يشهد روما تحترق، أو لعلني سأكون عرّافاً فأشي النجوم مسارات سقوطها، وأخبر الأرض بزمن ولادة الصدع فيها، سأكون «كارثياً»، وأشتمُ البارود في شفاه الرضع، وأنا أقي نفسي بالموت والنسيان، أنا فريدريك الكبير، «نيتشه المجنون» أخبركم عني.. أنا القيصر والنار والدموع، أنا

الأبراج والزلزال ومائدة المصائب، أنا المسيح بلا صليب، وأنا الصلب كلّه على جلدي، أنا.. هاذٍ – لا منافس له في صحارى القطعان (سكينة ناقصة)، وتراً على هاوية هاوية أشد انفعالاً من أجنحة الذباب، لا يهم، فبعد كل هذا، ورغم كل شيء، لا بأس، لا بأس، أشهد أني قد حاولت، وسرعان ما نامت الوحوش كلها على سريره يغطيها الظلام النائم.. الأمين! في منتصف الليل العميق.

---

*** كاتب وناقد عراقي يقيم في بغداد .**

– هوامش :

(1) إشارة إلى كتاب (هنري ليشتا بزجر) الموسوم (نيتشه)، وهو كتاب يعنى بالتأويل النازي لفلسفة (نيتشه).

(2) أفربك، الصديق الشخصي لنيتشه في أواخر حياته.